البؤساء[١]

ترجم حافظ هذا الجزء الثَّاني من البؤساء ، فطوى به الأوَّل ، وكانوا يحسبون الأوَّل قد عقمت بمثله البلاغة ، فلا ثاني له . وبين الجزءين زمنٌ لو اتَّسع به أديبٌ في قراءة كتب الأدب ؛ لاستوعبها كلَّها ، فكأنَّ ارتفاع السِّنِّ بحافظ في هذه المدَّة جعل منه في قوَّة الأدب حافظين يُترجمان معاً .

وما البؤساء في ترجمته إلا فكرُ فيلسوفٍ تعلَّق في قلم شاعرٍ ، فانعطفت عليه حواشي البيان من كلِّ نواحيه ، وجاء ما تدري : أشعراً من النَّثر ، أم نثراً من الشِّعر ؟! وخرجت به الكتابة في لونٍ من الصَّفاء ، والإشراق كأنَّما تنحلُّ عليه أشعَّة الضُّحى .

ترجم حافظ ، فوضع اللُّغة بين فكره ، ولسانه ، ووقف تحت سحابةٍ من السُّحب الَّتي خفق عليها جناح جبريل ، فما تخلو كتابته من ظلٍّ يتنفَّس عليك برائحة الإعجاز ، وتراه يتحدَّر مع الكلام ، ويتناول منه ، ويدع ، فما نزع به الكلام منزعاً إلا وجده متمكِّناً منه ، وأصابه حيث أصابه ، كالتَّيَّار جملةً واحدةً تلفُّ أوَّل النَّهر ، وآخره على مدِّ ما يجري ؛ فهو حيث كان في السَّهل ، وفي الصَّعب ، غير أنَّه يستسرُّ في موضعٍ ، ويستعلن في موضعٍ ، ويجيش ، ويهدر ، ويترامى في العمق فيدوِّي دويّاً .

ومن هنا يحسبه بعضهم يجنح إلى ما يستجفي من الكلام ، وإلى استكراه بعض الألفاظ ، والتَّكلُّف لبعضها ؛ وإنَّما ذاك وضعٌ من أوضاع اللُّغة ، ومذهبٌ من مذاهب البلاغة ، ولا بدَّ أن يشتدَّ القول ، ويلين ، وأن يكون في أجراس الحروف ما في نغم الإيقاع ، وما أشبه هندسة البيان بهندسة الطَّبيعة ؛ الَّتي تغمر النَّهر ، وترمي بالبحر ، وتقذف بالجبل الأشمِّ ، وما الجبل لو حققت في وجوه التناسب الطَّبيعيِّ إلا بحرٌ قد تحجَّر ، فانتثرت أمواجه من صخوره ، وكلا اثنيهما على ما بين

---

(١) كتبها عن الجزء الثاني من « البؤساء » ، وانظر مقالَيْ المؤلف عن حافظ في هذا الجزء . (س) .

الصَّلابة واللِّين ، تعبيرٌ في أساليب القوَّة عن القوَّة ، وتوضيحٌ لأقوى ما لا يمكن أن يظهر ، بأقوى ما لا يمكن أن يخفى .

يخطىء الضِّعاف من الكتَّاب ، وبخاصَّةٍ في أيَّامنا هذه . . . إذا حسبوا الفصاحة العربيَّة قبيلاً واحداً من اللَّفظ المأنوس ، ولقد تجد بعض هؤلاء الضُّعفاء وإنَّه ليرى في الكلام الجزل المتفصِّح ما يرى في جمجمة الأعاجم ؛ إذا نطقوا ، فلم يبينوا ، وإنَّما هي العربيَّة ، وإنَّما فصاحتها في مجموع ما يطَّرد به القول . والفصاحةُ في جملتها ، وتفصيلها : إحكام التَّناسب بين الألفاظ والمعاني ، والغرض الَّذي يتَّجه إليه كلاهما ، فمتى فُصِّل الكلام على هذا الوجه ، وأُحكم على هذه الطَّريقة ؛ رأيت جماله واضحاً بيِّناً في كلِّ لفظٍ تقوم به العبارة من النَّسج المهلهل الرَّقيق ، إلى الحبك المحكم الدَّقيق ، إلى الأسلوب المندمج الموثَّق الَّذي يسرد في قوَّة الحديد ؛ إذ يكون كلُّ حرفٍ لموضعه ، ويكون كلُّ موضعٍ لحرفه ، ويكون كلُّ ذلك بمقدارٍ لا يُسرف ، وقياسٍ لا يُخطئ ، ووزنٍ لا يختلف ، وهذه هي طبيعة الفصاحة العربيَّة دون سائر اللُّغات ، وبها أمكن الإعجاز في هذه اللُّغة ، ولم يمكن في سواها .

ومترجم البؤساء أحد الأفراد المعدودين الَّذين أحكموا هذه الطَّريقة ، ونفذوا إلى أسرارها ، ففي كلِّ موضع من كتابته موضع روعةٍ ، حتَّى ما تدري أيكتب ، أو يصوغ ، أم يصوِّر ؟ وكأنَّه لا ينقل من لسانٍ إلى لسانٍ ، بل من فكرٍ إلى فكرٍ ، فترى أكثر جمله كأنَّها تضيء فيها المصابيح .

ومن الخواصِّ الَّتي انفرد بها حافظ : أنَّه ظاهرٌ في صنعة ألفاظه ظهور هيجو[١] في صنعة معانيه ؛ إذ لا تجد غيره من المترجمين يتَّسع لهذا الأسلوب ، أو يطيقه ، وأكثر الكتب المترجمة إلى العربيَّة إنَّما تطمس على اسم المترجم قبل أن تكشف عن اسم المؤلِّف ، فلا يحيا الميِّت إلا بموت الحيِّ ، وهم في أكثر ما يصنعون لا يعدون أن يصحِّحوا العامِّيَّة ، أو يفصحوا بها قليلاً ، فيستوي في صنعة البيان أن يكون ناقل الكتاب هذا ، أو ذاك ، أو ذلك ؛ لأنَّهم سواسية ، ولا تؤتيك كتبهم أكثر ممَّا يؤتيك الاسم المعلَّق على مسماه .

---

(١) « هيجو » : أي : فيكتور هيجو ، صاحب رواية « البؤساء » الفرنسيَّة .

غير أنَّك في البؤساء ترى مع التَّرجمة صنعةً غير التَّرجمة ، وكأنَّما ألَّف هيجو هذا الكتاب مرَّةً ، وألَّفه حافظ مرَّتين ؛ إذ ينقل عن الفرنسيَّة ، ثمَّ يفتنُّ في التَّعبير عمَّا ينقل ، ثم يُحكم الصَّنعة فيما يفتن ، ثمَّ يبالغ فيما يُحكم ، فأنت من كتابه في لغة التَّرجمة ، ثمَّ في بيان اللُّغة ، ثمَّ في قوَّة البيان ؛ وبهذا خرج الكتاب وإن مترجمه لأحقُّ به في العربيَّة من مؤلِّفه ، وجاء ، وما يستطيع أحدٌ أن ينسى أنَّه لحافظ ، دون سواه .

وتلك طريقةٌ في الكتابة لا يستعان عليها إلا بالأدب الغزير ، والذَّوق النَّاضج ، والبيان المطبوع ؛ ثمَّ بالصَّبر على مطاولة التَّعب ، ومعاناة الكدِّ في تخيُّر اللَّفظ ، وتجويد الأسلوب ، وتصفية العبارة ، فلقد ينفق الكاتب وقتاً في عمر اللَّيل ؛ ليخرج من آخره سطراً في نور الفجر ، وبهذا الصَّنيع جاءت صفحات البؤساء على قلَّتها كشباب الهوى ، لكلِّ يومٍ منه فجره ، وشمسه ، ولكلِّ ليلةٍ قمرُها ونجومها .

* * *

والَّذي نغتمزه في هذه التَّرجمة أنَّ الضَّجر يستبدُّ أحياناً بصاحبنا ، فيستكرهه على غير طبعه ، ويردُّه إلى غير مألوفه ، ومن ثمَّ يضطرب ذوقه ، وسليقته ، أو يذهب به عنهما ، فيعدل بالمعنى عن لفظه المعروف الَّذي استعمله الأدباء فيه كاستعماله : قارن بين كذا ، وكذا ، وإنَّهم يستعملون مثل بينهما . أو يخلُّ بوزن الكلمة في ميزان الذَّوق ، فترى العبارة اليابسة في الجملة الخضراء الَّتي ترفُّ ، وذلك ما لا مطمع لأحدٍ أن يسلم منه ؛ لأنَّه أثر الضَّعف الإنسانيِّ فيمن ارتهنوا أنفسهم بملابسة القوَّة العليا في هذه الإنسانيَّة .

ولم يتنزَّه عنه كتابٌ إلا ذلك الكتاب العزيز ؛ الَّذي اهتزَّت له السَّموات السَّبع ، والأرضُ ، ومن فيهن .

* * *